

سودانيون في المكسيك

ر. كيرك

تقديم: نشرت ترجمة لقطعتين تتعلقان بقصة الجنود السودانيين الذين تم نقلهم للمكسيك بناء علي أوامر والي مصر ليحاربوا باسم إمبراطور فرنسا نابليون الثالث (والذي كان يحارب أهل المكسيك باسم أرشودوك النمسا!) وذلك عن كتاب «صفوة الفيلق الأسود» لريتشارد هل وبيتر هوق) وفيما عدا الكتاب المذكور فإنه يبدو أن الكتابة في هذا المبحث التاريخي باللغة الإنجليزية لا تتعدى ما كتب في عام ١٩٤١م في السودان في مذكرات ومدونات (أو مذكرات ومدونات السودان Sudan Notes and Records) وفي ورقة صغيرة (هي موضوع هذه الترجمة)، وهناك ورقة صغيرة سابقة لهذه (دلني عليها بروفيسر إبراهيم صغيرون) كتبها هـ. ب. توماس ونشرت عام ١٩٤٠م في مجلة يوغندا (Uganda Journal)، وأفادني الأستاذ حيدر الهاشمي أن لأحمد حسن مطر (الرحالة السوداني الشهير/ المجهول) كتابا بالعربية عن ذات الموضوع تم نشره في أوائل الستينيات. أود الاعتذار عن أي خطأ في ترجمة الأسماء الأسبانية والفرنسية للمدن والأشخاص وذلك للجهل (الشنيع) باللغتين، وآمل في أن يراجع القطعة من هو في اللغتين ضليع. وأشير هنا إلي أنني فشلت في العثور علي ورقة كيرك في «السودان في مذكرات ومدونات» من السودان بينما أفلحت رسالة إلكترونية «ممايلة» (e-mail) صغيرة لمكتبة دراهاام (دراهم) في إرسالها لي تبرعا لوجه التاريخ حتى كدت أن أتفهم دوافع من دعا أن «يا الإنجليز ألفونا».

ينتهي مقال صغير للسيد توماس في «مجلة يوغندا» عن الفرقة السودانية في المكسيك (١٨٦٣ - ١٨٦٧م) إلي حقيقة أن ما كتب بالإنجليزية عن هؤلاء الجنود السودانيين الذين بعث بهم سعيد باشا (اسمه الكامل محمد سعيد باشا محمد علي، وقد حكم مصر من ١٤ يوليو ١٨٥٤ إلى ١٨ يناير ١٨٦٣م - المترجم) إلى المكسيك لمساعدة الإمبراطور ماكسميليان قليل جدا ويصعب الحصول عليه في أحيان كثيرة. لسبب ما لا تشير الكتب العسكرية الفرنسية القديمة التي تناولت حرب المكسيك إلي جنود سودانيين أو مصريين عند الحديث عن الفرق والوحدات التي بعثت بها فرنسا إلي المكسيك، بينما أشارت بعض المصادر الطبية إلى أن كثيرا من الجنود الفرنسيين كانوا

قد وقعوا فريسة للحمى الصفراء عند قدومهم للمكسيك بينما قاومت أجساد الجنود السودانيين ذلك المرض، وكان ذلك مصدر اهتمام واختلاف بين الأطباء فعزا بعضهم ذلك لاختلاف عرقي يتمثل في مقاومة طبيعية افترضوا وجودها لدى الزنوج.

أيد ذلك الزعم طبيب أمريكي هو هـ. ر. كارتر في كتابه الشهير عن الحمى الصفراء والصادر في ١٩٣١م، بينما رأى الطبيب البريطاني هوير في مقال له في المجلة الطبية لانست Lancet عام ١٩٣٤م أن مقاومة الجنود السودانيين للحمى الصفراء قد تعزى لتعرض هؤلاء الرجال لعدوى ذات المرض في وقت سابق لسفرهم للمكسيك مما قد يكون قد أكسبهم مناعة ضد ذلك المرض. رصد بعض المؤرخين الفرنسيين كتابات متفرقة عن تاريخ الجنود السودانيين في المكسيك، بيد أن ما كتبه الأمير عمر طوسون عام ١٩٣٣م عن «بطولة الأورطة» (الكتيبة - المترجم) السودانية في المكسيك» يعد من أكمل ما كتب عن الموضوع، ولما كان مقال الأمير بالعربية، فإنه لم يك معروفًا لأغلب الباحثين والمهتمين بتاريخ تلك الكتيبة.

ركز مقال توماس المنشور في «المجلة الأوغندية» على بقايا أغراض تم العثور عليها في الاستوائية ويوغندا لبعض أولئك الجنود العائدين من المكسيك. وفي ما عدا ذلك فإن ما هو موثق لأولئك الجنود لا يتعدى بعض الوثائق المطمورة في أضاير أرشيف الحكومة أو في رسائل قديمة منسوبة لبعض الأفراد أو في بعض الكتابات التاريخية التي خطها بعض الجنود السودانيين مثل عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» علي جدران بعض الكنائس في «قصر قوميز» Gomez Palacio والمعابد القديمة المتهالكة في فيرا كيرز Vera Cruz. نشرت جريدة لايف Life الأمريكية الشهيرة في عددها الصادر في يوم ٢ / ٧ / ١٩٤١م صورة للعقيد فرانيسكو لanas وكان يومها قد بلغ التاسعة والتسعين من عمره. كان الرجل قد حارب في صفوف الجيش المكسيكي ضد الفرنسيين في بيوبلا Puebla، وبما أن المناطق التي حارب فيها الجنود السودانيين كانت تقع بين في القرى بين منطقة بيوبلا وفيرا كيرز فإنه من المحتمل جدا أن ذلك العقيد قد حارب ضد أولئك السودانيين وتذكرهم جيدا.

لا أظن أن هنالك كثيرا من الجنود أو الضباط من الذين شهدوا تلك الأحداث البعيدة التعمية قبل نحو ثمانين عاما لا زالوا علي قيد الحياة. إن تاريخ تلك الحملة ليس ببعيد جدا عن واقع اليوم حيث أظهر الجنود السودانيون أصالة معدنهم الحقيقي في ميادين القتال (في الحرب العالمية الثانية - المترجم)، ولكن هذه المرة كانت أرض المعركة قريبة من ديارهم. أرى أيضا أن حملة السودانيين في المكسيك ذات صلة وثيقة

بمرض الحمى الصفراء. قام السيد هوق بترجمة أجزاء كبيرة من ما كتبه الأمير عمر طوسون عام ١٩٣٣م عن بطولة الكتيبة السودانية في المكسيك، واهتم السيد نيوبولد بتاريخ تلك الكتيبة، ليس فقط لأنه مؤرخ ومهتم بالشأن السوداني، بل لأنه والدته الاسكتلندية هي من صلب العقيد ديفيد فيرجسون الذي خدم في الجيش الأمريكي وولد في المكسيك في ١٨٩٧م، وكان لها نفس المربية التي تولت أمر حفيده من رشحه الإمبراطور ماكسميليان ليخلفه، وكان زوجها وليام نيوبولد موجودا في المكسيك عندما كان في الخامسة والثلاثين أثناء الحرب الفرنسية.

جمع نيوبولد بعض آثار الإمبراطور ماكسميليان بعد موته ومن ذلك سرج حصانه والذي أحضره نيوبولد معه للخرطوم وظل يستخدمه في تنقلاته. قدم نيوبولد وهوق لي معلومات إضافية قيمة عن الكتيبة السودانية في المكسيك مما سأورد بعضه هنا. شهد تاريخ المكسيك منذ سقوط الإمبراطوريات الأيبيرية في العالم الجديد إلي عند قيام الانتخابات الثانية لبورفيرو دياز ثم إلي عند قيام الجمهورية في 1884م تشاحن ملتهب وعمرد عنيف وصراعات مدمرة كانت إمبراطورية ماكسميليان تمثل فقط أحد فصولها الدامية. كانت أوصال المكسيك تتمزق بين عامي ١٨٥٨ - ١٨٦١م في رحى حرب أهلية بين حكومتين متناحرتين، إحداهما دينية محافظة يقودها محارب طموح قدير يسمى ميجيل ميرامون، وكانت الأخرى تقدمية علمانية يقودها رجل هندي يمتاز بوضوح الفكرة والبيان يدعي بنيتو يوريز (قبل أن بنيتو موسوليني قد سمي عليه) وكان رجال الكنيسة الكاثوليكية لا يكفون عن الهجوم عليه لقيامه بإجراءات عنيفة وشاملة هدفت إلي تقليص أظافر الكنيسة وسلطتها وثرواتها الطائلة.

لجأ الطرفان إلي السلاح واحتكما إليه، وفي ذلك اعتمدا علي المال الذي كانا يقترضانه من أوروبا، ولم يقصر طرف من الطرفين المتحاربين في بذل الوعود السخية بدفع تلك الديون حالما تضع الحرب أوزارها وينتصر علي عدوه اللدود. كانت الولايات المتحدة تعترف بحكومة بنيتو يوريز وتقف في صفها، بينما ظفر الطرف الآخر بعون رجال المال في أوروبا، فقام مصرفي سويسري يقيم في باريس اسمه جيكيير بإقراض حكومة ميجيل ميرامون ٧٥٠٠٠٠ دولار أمريكي مقابل أن يعطيه ميرامون سندات (بفائدة ٦ ٪) قيمتها الاسمية نحو ١٥ مليون دولار أمريكي! خسر ميرامون الحرب في ١٨٦١م، بيد أن ذلك لم يمنع ذلك المصرفي السويسري من أن «يقنع» بوسائل فاسدة القنصل الفرنسي في المكسيك ديو دي سالقني بمقته في استرداد أمواله من قدر له الانتصار وحكم المكسيك، وتبنى الشقيق الأصغر للإمبراطور نابليون الثالث مطلب جيكيير في استرداد أمواله مضاعفة أضعافا كثيرة من يحكم المكسيك،

بعد أن ينال هو ٣٠٪ (كحقه) في العملية!

لم يكن من العسير إثارة اهتمام نابليون الثالث بالمغامرة في المكسيك، فلقد ظل الرجل في معتقله في «هام» يحلم بأمريكا وسطى متحضرة ومنتعشة اقتصاديا ومنفتحة علي التجارة العالمية والأسواق بواسطة بقناة تصلها بالمحيط. وساهم رجالات الدين المكسيك المهاجرون في باريس (ومنهم بطريك المكسيك) في استمالة الإمبراطورة أوجيني (وهي من أصل إسباني) «لتقنع» زوجها الإمبراطور بمساندة إنشاء مملكة وكنيسة متحدة مركزية في المكسيك. بدا أمر طرد الهنود الملحد من المكسيك وإنشاء إمبراطورية كاثوليكية تحت إمرة التاج الفرنسي هدفا جاذبا وذا منافع مادية مغرية لرجالات الكنيسة المكسيكية.

كانت المكسيك بالنسبة للفرنسيين بلدا غريبا بعيدا لا يعلمون عن طقسه وجغرافيته إلا النذر اليسير، والذي لا يتعدى أن المكسيك بلد واسع شاسع مترامي الأطراف وبه من الثروات العظيمة ما به. كان الوقت ملائما لفرنسا للقيام بمغامرة غزو المكسيك إذ أن الولايات المتحدة كانت في شغل شاغل بحربها الأهلية بين الشمال والجنوب، ومثلت الفوضى الحادثة في المكسيك والتعدي على الأجانب من قبل الطرفين المتحاربين ذريعة مواتية للتدخل الأجنبي، فلقد اعتدت الحكومة المكسيكية علي ممثلي السفارة البريطانية والبابوية وعلى وزير إسباني وتم طرد ممثلي جواتيمالا والإكوادور لانتهاهما بالتدخل السافر في شؤون البلاد لصالح القوى الرجعية. وأوقف برلمان تلك الحكومة دفع ديون بريطانيا المستحقة في ١٨٦١م، وتم في مرات عديدة استهداف أرواح وممتلكات الأوربيين دونما تعويض أو حتى مجرد تفسير.

تحالفت فرنسا مع بريطانيا العظمي وإسبانيا علي العمل سويا علي هدف محدد ومحدود إلا وهو استرداد الأموال التي أقترضوها للمكسيك مع أرباحها، وتم التوقيع علي ميثاق ذلك التحالف في لندن يوم ٣١ / ١٠ / ١٨٦١م. وما أن حل يوم ١٤ / ١٢ من ذات العام حتى كانت القوات الأسبانية تحت إمرة الجنرال بريم تحتل فيرا كرز وأعقب ذلك بفترة وجيزة وصول الأسطول الفرنسي محملا بالجنود الفرنسيين لاحتلال كامل شواطئ وموانئ خليج المكسيك وتحصيل الجمارك لصالح الدول الثلاث إلى حين التوصل إلى تسوية شاملة. بعثت بريطانيا العظمى بسفنها للمنطقة بيد أنها أكتفت بإزالة ٧٠٠ فقط من جنودها في المكسيك.

ولما كان الطقس وخيما في فيرا كرز فلقد قر رأي الدول المشاركة في الحملة بعد عقدهم لمؤتمر مشترك مع الحكومة المكسيكية في سولي داد على أن تعترف هذه الدول

باستقلال المكسيك شريطة أن تسمح الأخيرة لجنود أجنبية بالتقدم نحو أورري زابا. هنا بدأ الخلاف يدب بين الدول الثلاث المتحالفة في مستقبل حملتهم المشتركة وطبيعتها وأهدافها النهائية. ولما كانت فرنسا هي التي أخذت زمام المبادرة باستضافتها لقادة المعارضة من الرجعيين المكسيك وتبنيها لمطلب المصرفي السويسري جيكيير وإظهارها لشهية عظيمة في التدخل في الشؤون الداخلية للمكسيك فلقد أثرت كل من بريطانيا العظمى وإسبانيا الانسحاب من المكسيك في مارس عام ١٨٦٢م وترك «الجمال المكسيكي» بما حمل لفرنسا.

بعثت فرنسا بمزيد من جنودها للمكسيك وتصدت لهم قوات زاراقوزا وبورفيرو دياز في معركة سنكو دي مايو في يوم ٥/٥/١٨٦٢م. وفي سبتمبر ١٨٦٢م أمدت فرنسا جيشها في المكسيك بثلاثين ألفا من الرجال تحت إمرة الجنرال فوري وقضت تلك القوات الشتاء في أورري زابا ثم تقدمت في ١٧/٢/١٨٦٣م نحو يوبلا ودخلت عاصمة المكسيك في السابع من يونيو. وضح من واقع الحال أن الأمر إن هو إلا حرب احتلال سافرة تهدف إلى قلب حكومة جوريز وإحلال إمبراطورية كاثوليكية في المكسيك تحت إمرة فرنسا. وتم إقناع ماكسميليان (وهو شقيق إمبراطور النمسا) ليكون إمبراطورا علي المكسيك (وكان في الواقع إمعة ودمية في يد الحكومة الفرنسية). كان ماكسميليان رجلا وسيما محسنا لين الجانب رقيق الحاشية، ومن النوع المتحرر الذي لا يتوقع أحد أن يرفض أي شعب توليه لمقاييد حكمه. بيد أن شعب المكسيك لم يرض به وثار عليه وكلف ذلك كله الحكومة الفرنسية أموالا طائلة ورجالا كثيرين لم تكن تتوقع خسارتهم.

فقدت فرنسا في الفترة بين نوفمبر ١٨٦١ - يونيو ١٨٧٣م ما يقارب من ٣٧٠٠٠ من الرجال علي شواطئ المكسيك الموبوءة بالأمراض. مات من أولئك الرجال نتيجة الحمى نحو ١٤١٠ رجلا بينما لم يمت نتيجة القتال المباشر سوى ٣٣٠ رجلا فقط. فتكت بأولئك الرجال الحمى الصفراء والدوسنتاريا. وضاعت المقابر في فيرا كرز - علي اتساعها- عن استيعاب الموتى من الجزائريين والفرنسيين، وأطلق بعضهم ساخرا علي المقبرة التي ضمت أجساد أولئك الجنود «حديقة التأقلم». عند ذلك طلب نابليون الثالث من سعيد باشا والي مصر والابن المفضل لمحمد علي باشا مد يد العون له بفرق سودانية علي أمل أن تتحمل أجساد أولئك الجنود الزنوج أمراض المكسيك بأفضل مما فعل الفرنسيين، ولقد نما لعلم الإمبراطور أن الجنود السودانيين قد تم «استخدامهم» من قبل وبنجاح باهر من قبل محمد علي في موري (في اليونان - المترجم)، ومن قبل إبراهيم باشا في الجزيرة العربية.

استجاب سعيد باشا لذلك الطلب بيد أنه بعث فقط بكتيبة واحدة من فوج المشاة التاسع عشر تتكون من ٤٥٣ من الضباط والجنود. كان على رأس تلك القوة البمباشي جبر الله محمد أفندي مع نائبه اليوزباشي محمد الماظ أفندي. أبحرت السفينة من تولون في يوم ٢٣ / ١٢ / ١٨٦٢ م، ووصلت إلى الإسكندرية في الفاتح من يناير ١٨٦٣ م. تم نقل الكتيبة السودانية سرا إلى ميناء الإسكندرية بين ليل السابع والثامن من يناير واتجهت إلى المكسيك حيث وصلت إلى فيرا كيرز يوم ٢٣ / ٢ / ١٨٦٣ م أي بعد ٤٧ يوماً في عرض البحر. كانت الكتيبة مكونة من قائد واحد ورائد وملازم واحد وثمانية من الرقباء و١٥ عريفا و٣٥٩ من الجنود و٣٩ من المجندين و٢٢ من الأطفال تراوحت أعمارهم بين ١٠ - ١٥ عاماً. كان المجندون - والذين بعثت بهم شرطة الإسكندرية مساء يوم الرحيل - شبه عراة، بيد أن بقية رجال الكتيبة - وغالبيتهم من كردفان ودارفور - كانوا في كامل زيههم العسكري وهم يحملون عدتهم وعتادهم. مات في عرض البحر سبعة من الرجال، ربما بسبب حمى التاييفويد أو أمراض صدرية، وبعد الوصول إلى فيرا كيرز بقليل مات ١٥ رجلاً آخرين، ولم يتحدد إن كان هؤلاء الجنود قد ماتوا بسبب الحمى الصفراء أم غيرها.

كان الكثيرون يعتقدون بأن تلك الحمى لم تكن موجودة في منطقة فيرا كيرز بين يناير وأبريل ١٨٦٣ م لذا فلقد ساد الاعتماد بأن أولئك الجنود قد ماتوا لأسباب ليست الحمى الصفراء واحدة منها. لم يكن ثمة دليل أن المجندين التسعة وثلاثين الذين دفعت بهم شرطة الإسكندرية سودانيين أصلاً أو أن لهم متاعه ضد الحمى الصفراء. ومع حلول شهر إبريل عاودت الحمى الصفراء الظهور في فيرا كيرز بضراوة شديدة واستمرت في الانتشار حتى ديسمبر من ذات العام. قضت تلك الحمى علي قائد القوات الفرنسية في المنطقة وأحد عشر من كبار الضباط وكثير من الجنود الفرنسيين، ولسبب ما لم تصب تلك الحمى أي من الجنود السودانيين عدا قائد الجنود السودانيين البمباشي جبر الله محمد الذي كان الوحيد من بين السودانيين الذين تسببت الحمى الصفراء - حسب السجلات الرسمية - في موته. بل إن بعض المصادر الفرنسية عزت سبب إصابته بتلك الحمى لحالة كونه مصرياً وليس سودانياً!

ترك البمباشي جبر الله محمد بعد موته ٥٦٦٧ فرنكاً فرنسياً تم إرسالها إلى حكومة مصر لتقوم بإرسالها لورثته. تمت ترقية نائب القائد محمد الماظ أفندي إلى رتبة البمباشي وتولي القيادة مكان البمباشي الراحل جبر الله محمد. لم يسلم السودانيون تماماً من الآثار الممرضة لطقس المكسيك رغم أنهم أبدوا مقاومة أشد لها من رصفائهم

الفرنسيين، بل والمكسيكيين أنفسهم. فعند نهاية ١٨٦٣م مات ٤٧ من الجنود منذ سفرهم من الإسكندرية، بينما سقط نحو ٤٣ منهم. فقط فريسة لأمراض أخرى وقد عزاها البعض لعدم الاهتمام الذي لقيه أولئك الجنود عند وصولهم لأول مرة في فيرا كيرز، فلم يحاول أحد أن يتعرف على لغتهم أو أذواقهم أو طباعهم. لم تكن عملية تنظيم إطعام هؤلاء الجند كافية وكان الطعام المقدم لهم قليلا لا يتناسب مع الأعمال الشاقة التي كان عليهم أداؤها.

وصل المجندون الذين دفعت بهم شرطة الإسكندرية جياعا وشبه عراة في مساء يوم الرحيل إلى فيرا كيرز وهم في حالة مزرية يرثى لها وكانت أغلب حالات الموت وسط الجنود من هؤلاء المجندين. تم بعد فترة قليلة من وصل الجنود إدخال بعض الإصلاحات علي الأوضاع. تمت عملية إعادة تنظيم للكتيبة على النسق الفرنسي فتم تقسيمها إلى أربعة فرق وصرفت أوامر محددة تحدد واجبات كل فرقة وتمت ترقية العديد من أفراد الكتيبة. بعث لخدوي مصر بنسخ من هذه الأوامر والترقيات للمصادقة عليها. بعث الخديوي بهذه الواجبات والترقيات لوزارة الحربية المصرية في ١٦/٣/١٨٦٤م، وسرت تلك الترقيات بأثر رجعي من يوم ١١/٣/١٨٦٣م. كانت أسلحة الجنود السودانيين ممتازة بيد أن بنادقهم كانت من نوع مختلف عما هو مستعمل في الجيش الفرنسي وكان ذلك يمثل عقبة في ما يتعلق بالذخيرة مما دعا الفرنسيين إلى إعطاء الجنود السودانيين بنادق فرنسية والاحتفاظ بالبنادق التي جلبها هؤلاء الجنود لحين انتهاء الحملة.

مثلت لغة الجنود السودانيين عقبة أخرى، إذ لم يكن هنالك من يفهم لغتهم ولم يكن من السهل شرح كيفية استعمال هذه البنادق الفرنسية الجديدة لهم. بيد أن الفرنسيين قد اكتشفوا وجود بعض المترجمين وسط الجزائريين في الجيش الفرنسي وكانوا هؤلاء خير عون لقادة الجيش الفرنسي في معرفة احتياجات الجنود السودانيين. أشاد الجميع بانضباط هؤلاء الجنود وبالسرية الفائقة التي تأقلموا فيها علي الأوضاع الجديدة وذلك عقب معرفة الفرنسيين باحتياجاتهم ومعالجة مشاكلهم الصحية الصغيرة والتعرف علي مواطن القدرة والقوة والتميز عندهم. سرعان ما اكتشف الفرنسيون نشاط وهمة هؤلاء الجنود وأنهم أكثر إجابة من غيرهم في المراقبة والرصد وشجاعتهم تفوق الوصف عند احتدام الوغى، وأنهم يخاطرون بأرواحهم في مواضع يتوجس ويخجل منها الجنود الفرنسيين.

نجح الجنود السودانيون نجاحا باهرا في تعقب الفدائيين ورجال العصابات المكسيكية الذين كانوا لا يكفون عن مهاجمة القوافل التي كانت تحمل الزاد والمؤن في

الأراضي المنخفضة في فيرا كرز، ويعتدون على نقاط الدفاع قليلة الحماية. خلال حصار بيبالا (ثانية أكبر المدن المكسيكية) والتي تم الاستيلاء عليها وعلى حاميتها المكونة من ٢٦ جنرالا و ٩٠ ضابطاً و ١٢٠٠٠ فرداً من مختلف الرتب في يوم ١٧ / ٥ / ١٨٦٣م أمر الجنود السودانيون بحماية خطوط الاتصالات بين تلك المدينة والساحل والتي حاول المكسيك مرارا قطعها. وكلف الجنود السودانيون أيضاً بحماية خط السكة حديد الذي كان في طور التشييد مما عجل بإكماله في وقت وجيز. رافق بعض الجنود السودانيون القائد العام للجيش الفرنسي مارشال بازين عند دخوله لمدينة مكسيكو العاصمة يوم ٦ / ٧ / ١٨٦٣م، وشاركوا بفعالية في معارك سبقت وأعقبت سقوط العاصمة، وعندما أقام الفرنسيون احتفالاً ضخماً حضره كل ممثلي السلطات المدنية والعسكرية بمناسبة الاستيلاء على العاصمة. وقع الاختيار على فرقة سودانية لتكون حرس الشرف، وبعد الاحتفالات قام الجنود السودانيون بعرض عسكري في أكبر ساحة عامة في العاصمة.

أثبت الجنود السودانيون كفاءة واقتداراً عظيمين لفتا نظر القادة الفرنسيين مما دعا القائد العام الفرنسي ليتتقي من بين الجنود السودانيون فرقة «قوة خاصة» وأن يصرف لكل فرد من أفراد هذه القوة الخاصة علاوة قدرها ٦٥ سنتاً (تعادل قرشين ونصف) في اليوم، وأن يشرف ويميز أفرادها بلبس شارة صفراء خاصة على الذراع. ساهم هذا الإجراء في رفع الروح المعنوية للجنود والضباط إذ أنه أثبت أن الجنود السودانيون قد نالوا احترام وتقدير رؤسائهم الفرنسيين. ومع انصرام عام ١٨٦٣م كان الجنود السودانيون قد خاضوا ثمانين معارك سجلوا فيها أعلى درجات الامتياز. كتب عنهم حاكم فيرا كيرز وهو يصف معركة خاضوها في ٢ / ١٠ / ١٨٦٣م : « لقد حمل الجنود السودانيون العبء الأكبر من تلك المعركة، ولقد توجتهم تلك الموقعة بأكاليل الفخار. لم يبال أحد منهم بالنيران الكثيفة التي كان العدو يرميها عليهم من كل صوب. كان عدد أفراد جيش العدو يفوقهم بتسعة أضعاف، ورغم ما عن ذلك فلقد نجحوا في «اجتثائه».

كان أهم إنجاز للكتيبة السودانية هو احتلال فيرا كيرز وحماية خطوط الاتصالات بين تلك المدينة والوحدات المتقدمة في داخل البلاد. وتكمن أهمية فيرا كيرز في أنها الميناء الذي تأتي عبره القوات الغازية والمواد التموينية. لذا كان من المهم جداً تأمين تلك المدينة والاتصالات بينها وبين بقية البلاد. وقام الجنود السودانيون بتلك المهمة دون كلل أو ملل من فبراير ١٨٦٣ إلى حين مغادرة الجيش الفرنسي للمكسيك في ١٨٦٧م. علقت أميرة في بلاط الإمبراطور ماكسميليان على الجنود السودانيون قائلة:

«هؤلاء السود من أبناء أفريقيا شديداً الاحتمال لطقس المكسيك وخيم الهواء»، وقامت ذلك الأميرة برحلة من فيرا كيرز إلي ميدلين كان حراسها الشخصيين فيها من الجنود السودانيين. وصفت الأميرة الرجال بأنهم طوال نحفاء وأقوياء الجسم يرتدون زيا أبيضاً ناصع البياض ويعتَمرون عمامات أنيقة وفي أيديهم بنادق طويلة وفي أحزمتهم خناجر. وقالت ما معناه: يا لروعة أن تكون في حراسة هؤلاء «الأسود السود» الذين يمنحونك شعوراً عظيماً بالأمن والأمان.

وصفهم أحد القواد الفرنسيين بأنهم رجال منظّمون، وأضاف ببعض المبالغة أن أحداً منهم لم يمرض أبداً، وكان يشاهدهم وهم رقود في منتصف النهار القانظ يغطون في نوم عميق تحت أشعة الشمس الحارقة ويستيقظون دونما أي إحساس بالأم أو صداع. وكان يقول أن أي فرنسي يحاول أن يفعل مثلهم لن يستيقظ من نومه تلك أبداً ووصفهم قائد آخر بأن «لهم روحاً قتالية لا تدعهم يتركون أسيراً ليعيش. لم أر في حياتي روحاً قتالية كالتي رأيتها عند هؤلاء السودانيين. ترى إصرارهم في نظرات أعينهم وشجاعتهم تفوق الوصف. إنهم ليسوا ببشر بل هم أسود ضارية». منح الأباشي عبد الله حسين باشا ميدالية حربية عرفانا بشجاعته وإقدامه وشراسته عند اللوغى لتكبيده العدو أفدح الخسائر، ذكر أن ذلك الأباشي طعن بسنكي بندقيته رجلاً مكسيكياً رفعه بيد واحدة والسنكي ما يزال منغرساً في جسده، رفع قائد الجيش الفرنسي في المكسيك ومحمد الماظ أفندي تقريرين لوزارة الحربية المصرية بإنجازات الجنود السودانيين في حرب المكسيك وبخسائثرهم وبتفاصيل أخرى. رفع الوزير التقرير للخليوي إسماعيل والذي فرح كثيراً بإنجازات جنوده وقوتهم ومهارتهم وقرر صرف معاشات لأرامل وعائلات من قتلوا أو ماتوا من الجنود وترقية بعض من تميزوا من أفراد الكتيبة، ووعد بإقامة احتفالات ضخمة لهم عند أوبتهم لمصر «سالمين غانمين إن شاء الله».

أشاد الفرنسيون بحسن انضباط الجنود السودانيين فذكر أحد كبار قادتهم أن كل فرد من أفراد الكتيبة مفعم قلبه بحسن أداء الواجب على أتم وجه، وأنه لم تسجل حالة واحدة لسوء سلوك من أي فرد فيها ولم يتم القبض على جندي واحد وهو نائم عن حراسة ليلية أو غافلاً عن واجب أو غائباً بدون عذر. وتمت الإشادة علي وجه الخصوص بالتالية أسماؤهم: ملازم فرح الزين، وملازم أول محمد سليمان والذي ظل واقفاً يقاتل رغم تلقيه لست طلقات نارية أدت لجروح خطيرة ونزف دم كثير. نال ذلك الضابط فيما بعد ميدالية العشرين من ديسمبر وتمت ترقيته إلى يوزباشي. كان الجنود السودانيون يزدون - من تلقاء أنفسهم - من أعداد من عليهم الحراسة

دون أن تصدر أوامر لهم بذلك حتى لا يؤخذوا على حين غرة.

وفي ذات مرة كان الملازم صالح حجازي يقود عشرين من الرجال في مهمة معينة، وفي الطريق اعترض طريقهم ٢٠٠ من الجيش المكسيكي. لم تكن السودانيين قلة عددهم فمضوا في مقاتلة العدو وتمكنوا من الانسحاب المنظم دونما خسائر. وبما أن سمعة هؤلاء الجنود السودانيين في المكسيك قد عمت في المكسيك وفرنسا ومصر فلقد أعطي لبعض أولئك الجنود شرف إطلاق مدافع الشرف تحية للإمبراطورة شارلوت عند وصولها لفيرا كيرز في ديسمبر ١٨٦٥، وكان ٥٠ منهم يمثلون حرس الشرف للأميرة الزائرة والتي نقلت لبعليها ماكسميليان إعجابها بمقدرات هؤلاء الرجال الاستثنائية وعن حسن مظهرهم ونظافتهم أيضا.

عندما بلغ مكسميليان ذلك أمر لهم بزيادة في الراتب بلغت ثلاثا وثلاثين ونصف ستا (تعادل قرشا وربع) يوميا. وعند أوبة الأميرة إلى أوربا في يوليو من عام ١٨٦٦م كان الجنود السودانيون هم الجنود الوحيدون بالمدينة الذين نالوا شرف توديعها رسميا. ومع نهاية عام ١٨٦٥م كانت الأورطة السودانية قد خاضت ٣٧ معركة، كان أغلبها في الشهور الأخيرة لتلك السنة. وخاضت في ١٨٦٦م إحدى عشرة معركة أخرى. كانت أعداد الثوار المكسيك تزداد يوما بعد يوم واشتد رحي حرب العصابات حتى أنه هاجمت ذات ليلة قوة مؤلفة من ٢٠٠ من الثوار تخطط لمراقبة كان بها ٢٦ من الجنود السودانيين. أتى الهجوم المكسيكي مباغتاً إلا أن السودانيين - رغم قلة عددهم - صمدوا ومضوا في الدفاع عن موقعهم حتى الساعة الخامسة والنصف صباحا. حينها انسحبت قوات العدو مخلقة العديد من القتلى والجرحى وراءها. ومع التزايد اليومي لعدد الثوار المكسيك اتضح جليا ضرورة الدفاع عن مدينة فيرا كيرز خشية من سقوطها في يد الثوار إلى حين إرسال مدد جديد من فرنسا بالرجال والعتاد.

نقل للخدوي إسماعيل باشا تقارير عن وضع جنوده في المكسيك وفكر في إرسال كتبية أخرى لمعاونة الكتبية المتواجدة هنالك، فأصدر أوامره في ٢٧ فبراير ١٨٦٥م لجعفر باشا مظهر الحاكم العام للسودان حينها لينتقي من بين مشاة قوة السودان أفراداً صغار السن أقوياء البنية حسني المظهر كي يبعثوا عن طريق سواكن إلي مصر. وفي ١٢/٤/١٨٦٥م بعث الخديوي لقائد الكتبية السودانية بالمكسيك برسالة يقول فيها: «الرجاء إعلام كل رجالنا معكم بضرورة الجلد والصبر حتى يحافظوا علي السمعة الحسنة التي اكتسبوها في المكسيك وأن يواصلوا أعمالهم بكل جد حتى يعودوا لديارهم ويحصلوا علي عظيم التقدير والامتنان من إخوانهم، وسوف نقوم بتجهيز

مزيد من القوات لعونهم وسيصلهم هذا المدد قريبا إن شاء الله. عندها سنأمر بعودتكم إلي أوطانكم بعد أن تطاول بقاؤكم في المكسيك». وبعث الخديوي مع ذلك الخطاب بالميدالية الجيدة من الطبقة الرابعة إلى الجنرال الفرنسي مارشال، وهو الضابط الفرنسي المسؤول عن الكتيبة السودانية، ولم يتسلم الجنرال الفرنسي الميدالية إذ أنه كان قد قتل في إحدى المعارك في الثاني من مارس ١٨٦٥م!

أرسل الخديوي السفينة «الإبراهيمية» إلي سواكن استعدادا لجلب مزيد من الجنود السودانيين ليرسلوا للمكسيك وبعث برسائل مستعجلة لحاكم التاكا وسواكن لاستعجال بعث أولئك الجنود. لم تجد «الإبراهيمية» عند وصولها لسواكن أي أثر لجنود. وبعد أيام سرى في سواكن وباء (لم تحدد طبيعته) اضطر معه قائد السفينة للعودة خالي الوفاض إلى مصر بدلا من الانتظار إلي ما لا نهاية. كان إسماعيل باشا قد أمر في هذا الأثناء باختيار جنود من حاميتي بربر ودنقلا ونقلهم لمصر عبر نهر النيل دوغما تأخير. رغما عن كل المحاولات التي بذلها الخديوي لإرسال مزيد من الجنود السودانيين للمكسيك إلا أنه لم يتمكن من إرسال جندي إضافي واحد لذلك البلد. كذلك لم ينجح ماكسميليان في الحصول علي أي عون من أوربا رغم ندائه العاجلة المتكررة.

وضعت الحرب الأميركية الأهلية أوزارها في ربيع ١٨٦٥م، وفي خريف ذات العام أيقن الجميع فشل الحرب المكسيكية. وقامت الحكومة الأميركية التي هزمت ولايات الجنوب بمطالبة الحكومة الفرنسية بسحب قواتها من المكسيك ورفضت الاعتراف بالحكومة العميلة التي نصبها الفرنسيون. وأتبع واشنطن القول بالعمل فحركت قواتها في بدايات ١٨٦٦م نحو ريو جراندى Rio Grande بعدها أيقن نابليون الثالث أن لا قبل له بأمريكا وجنودها فأعلن صاغرا عن نيته في سحب جيشه من المكسيك. أحس ماكسميليان بأنه بقي وحيدا بعد خذلان الفرنسيين له فالتجأ إلي الحزب الكاثوليكي ثم فكر في التنازل عن العرش رغم ضغوط زوجته شارلوت والتي سافرت لفرنسا لحث نابليون عي نصرته زوجها، فلم تلق منه إلا الإعراض والصدود، فصوبت وجهها نحو روما وتشرفت بالسلام علي البابا وحادثته في أمر زوجها. لم يك حظها مع البابا بأفضل من ما كان مع نابليون الثالث. انتهي الأمر بالإمبراطور ماكسميليان أن يخونه أقرب رجال المكسيك له وأن يقع في أسر الثوار والذين سجنوه لمدة قصيرة قبل تقديمه للمحاكمة وأعرض الإمبراطور - في نبل وإباء - عن محاولة الحرب من الأسر رغم عديد الفرص التي «أتاحت» له. حوكم الإمبراطور بتهمة تضمنت التمرد والقتل والسطو المسلح وأعدم رميا بالرصاص في ١٩ يونيو ١٨٦٧م

رغم احتجاج ملوك أوروبا وشخصياتها البارزة من أمثال فيكتور هيجو وجارibaldi. ولم تسمح الحكومة الثورية بإعادة جثمانه لأوروبا إلا بعد لأي شديد.

غادرت الكتيبة السودانية المكسيك مع باقي القوات الفرنسية في فبراير من عام ١٨٦٧م، وآت لمصر عن طريق فرنسا. وخلال الأعوام الأربعة التي قضاها الجند في المكسيك كانت جملة المعارك التي ٤٨ معركة كسبوا جلها ونالوا عظيم التقدير والإشادة من السلطات العسكرية الفرنسية. وصلت الأورطة إلي باريس في أبريل ١٨٦٧م وتم استقبالهم استقبالا شعبيا ورسميا ضخما وأنعم عليهم بأنواط الشرف وتم عرضهم علي نابليون الثالث والذي تفقد شخصيا طابور الشرف الذي اصطفوا فيه في يوم ٥/٢ وكان برفقته شهيم باشا وزير الحربية المصري. صافح الإمبراطور يد قائد الأورطة البمباشي محمد ألماظ وقلد العديد من الضباط الجنود الأوسمة ومنح من جرح منهم الكثير من العطايا.

غادرت الكتيبة فرنسا متجهة لمصر في مايو من ذات العام وكان عدد أفرادها ٣١٣ (من أصل ٤٥٣). ولحق بأفرادها ثلاثة آخرون بعد أن كان أحدهم قد احتجز في مستشفى بباريس وبعد أن أطلق سراح اثنين كانا قد وقعا في أسر ثوار المكسيك. وفي ٢٨ مايو ١٨٦٧م قدموا عرضا عسكريا أمام الخديوي إسماعيل أمام باحة قصره في رأس التين بالإسكندرية. وأقام لطيف باشا للضباط منهم حفل استقبال وسهرة شرفها بالحضور شريف باشا وقنصل فرنسا وغيرهما من كبار الشخصيات. وزينت صالة الاحتفالات بالأعلام المصرية والفرنسية.

أعلن إسماعيل باشا عن ترقية واسعة في صفوف تلك الكتيبة ورقي محمد ألماظ إلي رتبة الأميرالاي. كتب السير صمويل بيك لاحقا عن بعض جنود الكتيبة السودانية في كتابه «الإسماعيلية» والصادر في لندن عام ١٨٧٩م استعان ببعض أولئك الجند في حملته للقضاء علي تجارة الرقيق في الاستوائية وكانت حملته مكونة من الجنود السودانيين (ومعظمهم من العائدين من المكسيك) ومن الجنود المصريين. وكون السير صمويل حرسا خاصا به من السودانيين العائدين من المكسيك أطلق عليهم «الأربعين حرامي»، ويبدو أنهم ظلوا يحتفظون بمناعتهم ضد الأمراض المدارية، إذ أنهم قاوموا أمراضا ينقلها البعوض في المنطقة بين ملكال وقندروكو بينما تساقط فريسة لها الجنود المصريون. ولاحظ بيكر أن الجنود المصريين كانوا في حالة كربة بائسة نكدة، بينما كان الجنود السودانيون يتلذذون بشرب العرقي ليلا وهم في أتم صحة وأطيب مزاج.

ظل الجنود السودانيون في منطقة أشولي بعد أن غادرها صمويل بيكر في ١٨٧٣م.

زار العقيد الفرنسي لونج فاتيكو في ١٨٧٤م وشاهد معسكر الجنود السودانيين ولم يملك إلا أن يبدي إعجابه الشديد بنظافة أولئك الجند العامة والشخصية وعن ملابسهم ناصعة البياض تحت ظروف لا تساعد على ذلك، بل ولاحظ احتفاظ أولئك الجنود بصابون فرنسي معطر للاستحمام وهم في وسط أدغال أفريقيا. حضر القائد الفرنسي عرضاً عسكرياً مميزاً لأولئك الرجال وعلى صدورهم النياشين والأوسمة التي حصلوا عليها خلال حربهم في المكسيك ومنها وسام جوقة الشرف الفرنسي. استمع القائد الفرنسي في إعجاب إلى الرائد بابا توكا في منطقة فويرا وهو يحكي بشغف عن ذكرياته في المكسيك وعن حياته الباريسية القصيرة. عين مرجان أغا (وهو أحد أفراد الكتيبة السودانية في المكسيك) في جيش أمين باشا بينما عمل بعضهم في دارفور وكردفان وكسلا وارتريا، وقتل اثنان من هؤلاء الجند بنيران جيش المهدي وهما يحرسان غوردون في قصره بالخرطوم.

